السيرة جمعة رقم (3)

[الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ مِنَ هِجْرَةِ الرَسُولِ ﷺإِلَى الْفَتْحِ]

اَلْخُطْبَةُ الْأُولَى:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ وَاسِعِ الْفَضْلِ وَالْإِنْعَامِ، أَكْرَمَنَا بِأَنْ جَعَلَنَا مِنْ أُمَّةِ خَيْرِ الْأَنَامِ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْمُلْكِ عَلَى الدَّوَامِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الذِي كَانَتْ حَيَاتُهُ كُلُّهَا قُدْوَةً لِأُمَّتِهِ عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْكِرَامَ، وَمِنِ اِقْتَفَى أَثَرَهُمْ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ مَا تَعَاقَبَتِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ.

أَمَّا بَعْدُ فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

حَدِيثُنَا سَيَتَوَاصَلُ وَإِيَّاكُمْ – بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى – فِي مَوْضُوعِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَقَدْ رَأَيْنَا فِي الْجُمُعَةِ الْمَاضِيَةِ أَنَّ حَيَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْبِعْثَةِ إِلَى الْهِجْرَةِ كَانَتْ دَعْوَةً ثُمَّ ابْتِلَاءً ثُمَّ فَرَجًا بِهِجْرَتِهِ ﷺ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَمَّا الْيَوْمَ فَسَيَكُونُ عُنْوَانُ خُطْبَتِنَا هُوَ: حَيَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْفَتْحِ، وَسَيَنْتَظِمُ كَلَامُنَا حَوْلَ هَذَا الْعُنْوَانِ فِي ثَلَاثَةِ عَنَاصِرَ:

الْعُنْصُرُ الْأَوَّلُ: مَرْحَلَةُ بِنَاءِ الدَّوْلَةِ، فَبَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ أَسَّسَ أَوَّلَ دَوْلَةٍ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى ثَلَاثَةِ أُسُسٍ: أَمَّا الْأَسَاسُ الْأَوَّلُ فَهُوَ: بِنَاءُ الْمَسْجِدِ، لِأَنَّ الْمَسْجِدَ يُحَقِّقُ اجْتِمَاعَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْعِبَادَةِ، وَحُضُورَ حِلَقِ الْعِلْمِ، وَتَقْوِيَةَ أَوَاصِرِ الْأُخُوَّةِ وَالتَّعَاوُنِ، وَأَمَّا الْأَسَاسُ الثَّانِي فَهُوَ: الْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، لِأَنَّ الْمَسْجِدَ بِدُونِ أُخُوَّةٍ مُجَرَّدُ جُدْرَانٍ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْمُؤَاخَاةُ جَامِعَةً لِأَسْمَى مَعَانِي الْمَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ وَالتَّكَافُلِ، مِمَّا أَسَّسَ لِمُجْتَمَعٍ مُتَمَاسِكٍ، وَأَمَّا الْأَسَاسُ الثَّالِثُ فَهُوَ: كِتَابَةُ وَثِيقَةٍ تَتَضَمَّنُ حُقُوقَ الْمُوَاطَنَةِ وَوَاجِبَاتِهَا، وَتُنَظِّمُ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ الْجَدِيدِ، بِشَكْلٍ يَضْمَنُ الْعَيْشَ الْمُشْتَرَكَ فِي إِطَارِ التَّعَاوُنِ التَّامِّ وَالِاحْتِرَامِ الْمُتَبَادَلِ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِفُ بِالْأَسَاسِ إِلَى جَمْعِ الْكَلِمَةِ وَتَوْحِيدِ الصَّفِّ، وَقَدْ حَقَّقَ الرَّسُولُ ﷺ فِي ذَلِكَ نَجَاحًا بَاهِرًا لَمْ يُعْرَفْ لَهُ نَظِيرٌ مِنْ قَبْلُ وَلَا مِنْ بَعْدُ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَعْرِضِ الِامْتِنَانِ: وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا. ذَلِكَ أَنَّ الْمَسْجِدَ رَمْزٌ لِلْوَحْدَةِ، وَالْأُخُوَّةَ تَطْبِيقٌ عَمَلِيٌّ لَهَا، وَالْوَثِيقَةَ حِمَايَةٌ لَهَا.

الْعُنْصُر الثَّانِي: مَرْحَلَةُ الدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ، فَقَدْ حَوَّلَ الْمُشْرِكُونَ حَيَاةَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ إِلَى جَحِيمٍ لَا يُطَاقُ، حَتَّى أَرْغَمُوهُمْ عَلَى التَّخَلِّي عَنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَبَعْدَ اسْتِقْرَارِ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَدِينَةِ، صَارُوا يَتَحَيَّنُونَ الْفُرْصَةَ لِلْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ،

وَيُهَدِّدُونَ مَنْ آوَاهُمْ، وَيُحَرِّضُونَ الْمُنَافِقِينَ عَلَيْهِمْ، رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَتَبُواْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا، وَإِنَّا نُقْسِمُ بِاللَّهِ لَتُقَاتِلُنَّهُ، أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ، وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ. وَفِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الْخَطِيرَةِ أَذِنَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ دِفَاعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ اَلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ... وَقَدْ شَهِدَتْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ عِدَّةَ غَزَوَاتٍ، مِنْهَا: (غَزْوَةُ بَدْرٍ اِلْكُبْرَى) فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَ(غَزْوَةُ أُحُدٍ) فِي الثَّالِثَةِ، وَ(غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ) فِي الرَّابِعَةِ، وَرَغْمَ أَنَّ هَذِهِ الْغَزَوَاتِ كَانَتْ كُلُّهَا دِفَاعِيَّةً، إِلَّا أَنَّهَا أَكْسَبَتِ الْمُسْلِمِينَ تَجْرِبَةً كَبِيرَةً، وَكَسَتْهُمْ هَيْبَةً يَحْسَبُ لَهَا الْأَعْدَاءُ أَلْفَ حِسَابٍ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَنَّ بَقَاءَ هَيْبَةِ الْأُمَّةِ رَهِينٌ بِمَدَى اسْتِعْدَادِهَا لِرَدِّ عُدْوَانُ الْمُعْتَدِينَ، وَبِهِ تَكْسِبُ احْتِرَامَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلِذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ.

نَفَعَنِي اللَّـهُ وَإِيَّاكُمْ بِكِتَابِهِ الْـمُبِينِ، وَبِسُنَّةِ نَبِيِّهِ الْمُصْطَفَى الْكَرِيمِ، وَأَجَارَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْمُهِينِ، وَجَعَلَنِـي وَإِيَّاكُمْ مِنَ الذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ آمِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْـحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اَلْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

اَلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، صَلَّى اللَّـهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُمْ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

الْعُنْصُرُ الثَّالِثُ: مَرْحَلَةُ الْهُجُومِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ بَعْدَ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ: اَلْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ... وَهَذِهِ الْمَرْحَلَةُ أَيْضًا تَحْمِلُ مَعْنَى دِفَاعِيًّا، لِأَنَّ الْهُجُومَ هُوَ خَيْرُ وَسِيلَةٍ لِلدِّفَاعِ، وَقَدْ تَوَالَتْ فِيهَا الْأَحْدَاثُ لِصَالِحِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَخَاصَّةً بَعْدَ مُعَاهَدَةِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَالَّتِي وَقَعَ الِاتِّفَاقُ فِيهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَلَى وَقْفِ الْحَرْبِ عَشَرَةَ سِنِينَ، فَاسْتَغَلَّهَا الْمُسْلِمُونَ فِي الدَّعْوَةِ، حَتَّى دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْمُعَاهَدَةِ أَضْعَافُ مَا دَخَلَ فِيهِ قَبْلَهَا، فَصَارَ الْمُسْلِمُونَ قُوَّةً عُظْمَى، وَلَمْ تَمْضِ إِلَّا سَنَتَانِ، حَتَّى نَقَضَتْ قُرَيْشٌ مُعَاهَدَةَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ، فَجَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ عَشَرَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَفَتَحَ مَكَّةَ دُونَ قِتَالٍ، وَدُونَ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْ

أَهْلِهَا، رَغْمَ مَا تَجَرَّعَهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، بَلْ جَمَعَهُمْ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ قَالَ: مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟ قَالُواْ: أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. فَقَالَ ﷺ: اِذْهَبُواْ فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ. فَانْشَرَحَتْ صُدُورُهُمْ لِدِينِ اللهِ، وَتَحَوَّلَتْ مِنْ بُغْضِ الرَّسُولِ ﷺ وَالْحِقْدِ عَلَيْهِ، إِلَى الِاسْتِمَاتَةِ فِي مَحَبَّتِهِ وَالدِّفَاعِ عَنْهُ، وَدَخَلَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَنَتِيجَةً لِهَذَا الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ الذِي أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ الْمُسْلِمِينَ، اِقْتَنَعَتِ الْعَرَبُ جَمِيعًا بِأَنّ الْإِسْلَامِ هُوَ الدِّينُ ارْتَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، فَدَخَلُواْ فِيهِ أَفْوَاجًا، وَيُمْكِنُ أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَنَّ أَحْسَنَ وَسِيلَةٍ لِلدَّعْوَةِ هِيَ: تُمَثُّلُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، لِأَنَّهَا تُعْطِي صُورَةً مُشْرِقَةً عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَتَفْتَحُ لِدِينِ اللَّهِ قُلُوبَ جَمِيعِ الْأَنَامِ، وَصَدَّقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْقَائِلَ فِي مُحْكَمِ الْكَلَامِ: اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَلِلْحَدِيثِ بَقِيَّةٌ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

عِبَادَ اللَّهِ؛ اتقوا الله وَجَدِّدُوا الْعَهْدَ وَالْعَزْمَ عَلَى السَّيْرِ عَلَى نَهْجِهِ وَهَدْيِهِ، وَحَاسِبُوا النَّفْسَ عَلَى مَدَى الْتِزَامِهَا بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ.

أَلَا فَصَلُّواْ وَسَلِّمُواْ – عِبَادَ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ – عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْأَمِينِ وَالسِّرَاجِ الْـمُنِيرِ؛ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا تَامَّيْنِ دَائِمَيْنِ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ الْـمُتَّبِعِينَ لِسُنَّتِهِ وَهَدْيِهِ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، خُصُوصًا مِنْهُمُ الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَانْصُرِ اللَّهُمَّ مَنْ وَلَّيْتَهُ أَمْرَ عِبَادِكَ الْـمُؤْمِنِينَ؛ وَلِيَّ أَمْرِنَا خَادِمَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، نَصْرًا عَزِيزًا تُعِزُّ بِهِ الدِّينَ، وَتَرْفَعُ بِهِ رَايَةَ الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، مَحْفُوظًا بِحِفْظِ كِتَابِكَ، مَكْلُوءاً بِعَيْنِكَ الَّتِي لَا تَنَامُ، وَفِي جَنْبِكَ الَّذِي لَا يُضَامُ، مَوْفُورَ الصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، قَرِيرَ الْعَيْنِ بِوَلِيِّ عَهْدِهِ. اَللَّهُمَّ ارْحَمْنَا وَارْحَمْ وَالِدِينَا، وَارْحَمْ مَنْ سَبَقَنَا بِالْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ، عَلَى سَنَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ، اَللَّهُمَّ أَحْيِنَا عَلَى سُنَّتِهِ وَأَمِتْنَا عَلَى مِلَّتِهِ، وَاحْشُرْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَتِهِ، رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْـمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ.